ما بعد النقاشات البراديغمية : البراغماتية وبناء جسور التواصل بين نظريات العلاقات الدولية

بقلم

أ/ عبد الحميد مشري

أستاذ مساعد جامعة امحمد بوقرة بومرداس الجزائر

❖❖❖❖❖❖❖

ملخـــص:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الأطروحات البراغماتية في حقل العلاقات الدوليـــة، والـــتي عرفـــت حضورا مهما بين أعضاء الحقل في السنوات الأخيرة. إذ مع انسداد النقاش مع أنصار الطرح "البراديغمي" تسعى المنهجية البراغماتية إلى إعادة بناء جسور التواصل بين نظريات الحقل بهدف تجاوز الانقسام بين المرجعيات الفكرية من جهة، وبين النظرية والممارسة من جهة أخرى. فالبراغماتية تسعى للاستفادة من التعدد النظري بهدف التعاطي المثمر مع مشـــكلات العالم الواقعي. تحاول الدراسة معالجة سؤال مركزي يدور حول المنطلقات الابستيمولوجية للبراغماتيـــة وتبحـــث في الأساس التبريري للمنطق التوليفي.

Abstract:

This study seeks to shed light on pragmatism in the international relations, which has a significant presence between IR scholars in recent years. Trying to go beyond the paradigmatic proposition, pragmatism is seeking to build bridges between the different approaches in IR, in order to fill in the gaps between theories on one hand, and between theory and practice on the other hand. International politics in this sense can be analyzed better by 'multi-perspective theories' which take into account all the dimensions of the real world problems. This study attempts to discuss a basic question revolves around the epistemological foundations of pragmatism and looks in the justificatory arguments of synthesis logic.

مقدمة:

شهدت العلاقات الدولية في مجرى السنوات الأخيرة الكثير من التحولات العميقة والسّريعة ما جعل نظريات الحقل تجري وراء تفسير معقول لوتيرة التحولات تلك. إلاّ أن قصور التفسيرات المقدمة من البرامج البحثية المختلفة قاد إلى إقحام سؤال جوهري في صلب جهود التنظير في حقل العلاقات الدولية يدور حول العلاقة التي تربط النظرية بالواقع. فقد واجهت نظريات الحقل تحديات جمّة بسبب التعقيد الذي يميّز الظاهرة الدّولية، الأمر الذي وضعها أمام عقبات إمبريقية لم يعد بمقدور التصورات الأحادية مجاراتها ولا التعامل معها. وقد ظهرت علامات هذه الأزمة مع فشل التصوّرات "العقلانية" في تقديم تفسيرات مقنعة لنهاية الحرب الباردة، وعجزها عن فهم الاستمرارية والتغيّر في السياسة العالمية.

إن هذا الوضع المأزوم يشير إلى أن نظرية العلاقات الدولية تعاني حالة من الانقسام أكثر من أي وقت مضى، ذلك أن الحدود الفاصلة بين البراديغمات جعلت المعارف النظرية في الحقل تبدو جزرا مترامية الأطراف لا يربط بينها أي جسور للتواصل، ولا يبدو أمام كل الجهود الرّامية إلى إعادة تنظيم الحقل. إن استعارة الوصفات من تاريخ العلم وحقل الابستيمولوجيا قد ساعدته على تجاوز انقساماته ومعالجة أزمته تلك.

إن الأسئلة الرّاديكالية التي تمخض عنها النقاش "النظري الرابع" Fourth Debate أفضت إلى حالة من "اللاّمقايسة" incommensurability أعاقت التواصل بين أنصار البراديغمات، كما أن المماحكات التّجريدية المرتبطة بالمواقف "الميتانظرية" meta-theoretical لم تحمل أي مخرجات عملية وأدوات تحليلية تفيد في التعامل الناجع مع الظواهر الدولية.

إن هذا الانقسام النظري وضع الباحثين في الحقل أمام طيف متنوع من المقولات النظرية، دون أن يوفر لهم أدوات ناجعة تقدم لهم طريقة للاختيارات الملائمة المتعلقة بطبيعة مشكلاتهم العملية. إذ سعت التحليلات "العقلانية" في معظم الأحيان إلى محو جوانب كاملة من واقع التحوّلات الدولية. أما تحليلات الباحثين الأكثر انتقادا فقد كشفت إخفاقات النظريات المهيمنة وحدودها أمام التفكير النقدي والتأملي، وكشفت انغماسها في إدعاءات متعالية حول "الحقيقة" و"الموضوعية" وتلبّسها بالنزعة "العلموية".scientism وأمام هذا الصراع الفكري المتعلّق بالمراجعة الشاملة للأسس المعرفية للحقل، تُطرح اليوم الكثير من التساؤلات على الصعيد العملي حول كيفية الخروج من النفق وتصحيح آليات التعامل مع المنجزات النظرية المتعدّدة.

وفي هذا السياق دعت أصوات أكاديمية عديدة إلى ضرورة إعادة توجيه الحقل، وذلك عبر الانفتاح النظري بدل الانغلاق داخل الأطر البراديغمية فها هو "فريدريك كراتشوفيل" Friedrich Kratochwil مثلا يؤكّد على أن القضايا "الميتانظرية" مع أهميتها ليست بديلا للمناقشات الموضوعية للمشاكل السياسية والتحديّات العالمية. وما دام لا يوجد اتفاق حول أسس المعرفة العلمية بين البراديغمات، وفي ظل التنوع النظري الذي يعرفه الحقل يرى أنصار الطرح "البراغماتي" Pragmatists أنّه من الملح إعادة جسور التواصل بين نظريات الحقل مع درجة ملائمة من الوعي

الابستيمولوجي والمنهجي، كمحاولة للاستعاضة عن غياب نظرية شاملة من جهة، والتركيز على المشاكل الواقعية من جهة أخرى.

وبناء عليه، تسعى هذه الدراسة للمضي قدما في ثنايا هذه المشكلة عبر تسليط الضوء على إسهامات البراغماتية ودورها في توجيه منطق البحث، وتغيير طريقة التعامل مع المنجزات النظرية في حقل العلاقات الدولية. وعلى هذا الأساس فان الخط التوليفي الذي تدافع عنه البراغماتية و"التعدّدية" Pluralism يبدو واعدا، ويدخل ضمن نطاق الإهتمامات الأكاديمية، كما يعتبر رد فعل على النتائج السلبية التي خلفتها القولبة البراديغمية لتاريخ التقدم المعرفي في حقل العلاقات الدولية. وعليه، ستنطلق الدراسة من السؤال التالي: ما هي الأسس الإبستيمولوجية التي تقوم عليها المنهجية البراغماتية لتبرير منظورها التوليفي بين نظريات العلاقات الدولية؟ وهل يساعد إقحامها في الحقل على تجاوز الاختلافات "الميتانظرية" والخروج من الانسداد البراديغمي؟

وستحاول الدراسة تمهيد درب الإجابة على هذا السؤال انطلاقا من العناصر التالية:

1. مناقشة عوائق وحدود النزعة البراديغمية.

2. تفحص منطلقات البراغماتية والكشف عن قيمتها الابستيمولوجية.

3. البحث في مدى إمكانية بناء جسور التواصل وإقامة الحوار بين نظريات حقل العلاقات الدولية.

أولا– حدود النزعة البراديغمية:

لا تسعى الدراسة إلى عرض الطرح "الكوني" Kuhnian الذي بات معروفا في كل من أدبيات تاريخ العلوم، وتاريخ حقل العلاقات الدولية، وإنما ستحاول بدلا من ذلك تسليط الضوء على أهم الانتقادات التي واجهت النزعة "الكونية" والتي قدّمت التطور النظري في الحقل في شكل " نقاشات براديغمية " paradigmatic debates.

ومع الإقرار بالإسهام الذي قدمته طروحات "توماس كون" في إضفاء نوع من الترتيب للحقل وإعطائه هوية معرفية،إلا انه – من وجهة نظر الدراسة – فإن قولبة تاريخ الحقل وفق التصور "الكوني" يثير الكثير من المشكلات، وذلك لأن النزعة البراديغمية عطّلت الإخصاب وأعاقت الحوار بين مختلف الاتجاهات، وزادت من التصّلب وقللت من التبادل المثمر،وتركت نظرية العلاقات الدولية تعيش حالة من المونولوج والأحادية الانطولوجية والاختزالية الجافة التي انفصلت عن الواقع، كما أغرقت أنصار البراديغمات في نقاشات ميتانظرية دوغمائية.

ومع أن "توماس كون" يرى أن العلوم الاجتماعية أقل نضجا من العلوم الطبيعية لذلك تغيب فيها الهيمنة البراديغمية [1].إلاّ أنّ الكثير من أدبيات العلاقات الدولية قدّمت الاتجاه ما بعد الحداثي والبنائية والنسوية كبراديغمات، بالرغم من أن هذه التيارات لم تحقق إجماعا حول نظرياتها وبديهياتها ومعاييرها من قبل أعضاء مجتمعها العلمي [2].وعليه فإنّ هذا الإقحام التعسفي لمفهوم البراديغم لا بد وأن ينتج الكثير من المشاكل في طريقة فهم تطور الممارسات المعرفية في الحقل.

وبعامّة، يرى "توماس كون" ان من نتائج الثورة العلمية في حقل ما هو ظهور براديغم جديد، مما يعني تغيّرا في النظرة الى العالم، وهذا التغيّر يكون أشبه بالتحول "الجشطلتي"، الأمر الذي يجعل العلاقة بين البراديغم القديم والجديد

توصف بأنها في حالة "لامقايسة incommensurability" ما يعني تعذّر وعدم قابلية النظريات العلمية للقياس المتكافئ للحكم عليها وتقييمها بالمعايير نفسها.

تنبع هذه المشكلة من أن لكل نظرية إطارها ومفاهيمها وعالمها الخاص، بعبارة أخرى، استحالة نشوء حوار بينها، ذلك أن العلاقة بين براديغمين متعاقبين تكون أشبه "بحوار الطرشان" [3]. ومن ثمة، فإن أنصار البراديغمات يمارسون نشاطهم في عوالم مختلفة بحيث يختلفون في رؤية الأشياء حين ينظرون من النقطة نفسها والاتجاه نفسه..[4] ففي ظل "اللامقايسة" فان تفوق نظرية على أخرى يعد شيئا لا يمكن إثباته بالبرهان نظرا لغياب معايير عقلانية للاختيار، ولذلك رأى "توماس كون" بأن العوامل التي تحدّد طبيعة الاختيار والمفاضلة بين النظريات هي عوامل اجتماعية.

يعتقد "توماس كون" أن البارادايغم ذو طبيعة احتكارية، إذ انه يحتكر التفكير حول العالم، ولا يحتمل أي منافسين[5].إلا أنّ جون واتكنز" John Watkins يقدّم اعتراضه حول هذه الحجة ويجادل بأنه ولظهور براديغم جديد فإن الأمر سيستغرق زمنا، وهو دليل على أن بعض الأفكار كانت موجودة في فترة هيمنة البراديغم القديم[6]. وعليه، ليس صحيحا أن يهيمن براديغم ما هيمنة كاملة واحتكارية على عقول العلماء إلى الحد الذي يمنعهم من انتقاده والتلاعب به ورفض بدائل له، ما يعني أن المجتمع العلمي ليس مجتمعا منغلقا صفته الرئيسية رفض المناقشات النقدية[7].

يرى "صمويل م.هينس" Samuel M.Hines في السياق ذاته، أن "اللامقايسة" البراديغمية مشكلةٌ سياسية أكثر منها مشكلة منطقية. حيث أن سعي الباحثين لفرض نماذجهم تدخل في إطار علاقات السلطة والهيمنة الأكاديمية[8]. كونها موجّهة لفرض نموذج معرفي على آخر وهيمنة تصور على آخر، ما يجعل منها هيمنة اجتماعية. وفي هذا الصدد يرى "جيمس نوبل" James Noble أن عقبة "اللاّمقايسة" هي "مشكلة زائفة" pseudo- problem تزعم أن اختيار براديغم ما يكون بالضرورة على حساب براديغم آخر [9].

أمّا "وليام نيوتن سميث " william Newton Smith فيرى أنه إذا كان هناك نظريتان في حالة "لامقايسة" فلماذا يجب مواجهة مسألة الاختيار بينهما ؟ لماذا لا يتم تبنيها كلها؟[10] يجيب "توماس كون" على ذلك بأنه أمر صعب الحصول، بسبب تنافرهما، غير أن السؤال هنا، كيف يمكن لنظريات أن تكون متنافرة إذا كان يجب أن تكون هناك طريقة للمقارنة بينها على الأقل لتبرير " حكم التنافر؟ incompatibility judgment ، ففكرة وجود تنافس ومزاحمة بين نظريتين تستوجب بحد ذاتها أن تتشارك هذه النظريات في حد أدنى من الأشياء[11].

أما "لاري لودان" Larry Laudan فيرى أن النموذج "الكوني" يعاني من مجموعة الإختلالات أهمها:[12]

1- لا يعطي "توماس كون" أهمية للمشاكل المفاهيمية أثناء تقييم البراديغمات، وإن كان يرى أنه ليس هناك أي معيار عقلاني للاختيار بين البارادايغمات أو لتقييم تقدّم وصعود براديغم ما، إلا أنّ مفهوم المشاكل المفاهيمية وعلاقته بالتقدم لم يحضى باهتمام جدّي في تحليلاته[13].

2- يتميز البراديغم الكوني بالصّلابة التي تمنعه من التطور عبر الزمن، وتمنعه من الاستجابة للضعف وللحالات الشاذة التي قد ينتجها. وعلاوة على ذلك، وبسبب وضع افتراضاته المركزية في وضع محصن من أي نقد، فإنه لا توجد

أية علاقة تصحيحية بين البراديغيم والمعلومات الجديدة. يضاف إلى ذلك صعوبة تبرير البراديغم "الكوني" من الوقائع التاريخية، نظرا لأنّ هناك الكثير من "النظريات المختلطة" mixi theories تطورت عبر الزمن[14].

3– يفتقد البراديغم أو "القالب الانضباطي " disciplinary matrix كما قدّمة "كون" إلى الوضوح، ولأنه ضمني فمن الصعب فهم كيفية تفسيره للكثير من الخلافات النظرية التي حدثت في تاريخ العلم[15].

4– ولما كان البراديغم ضمنيا، فيمكن معرفته عبر "نموذجه examplars ، لذلك يرى "كون" أن من يتبع النموذج نفسه فانه بطبيعة الحال epso facto يتبع البراديغم نفسه. لكن لا يبدو أن هذا صحيح دائما، إذ يمكن لعلماء مختلفين استعمال النموذج ذاته مع اختلاف آرائهم الانطولوجية والمنهجية، فمثلا، يقبل علماء الميكانيك والطاقة بقانون حفظ الطاقة، وعليه فان تحليل العلم من منظور براديغمي من غير المحتمل أن يعكس شبكة صلبة من الالتزامات المفاهيمية والنظرية والميتافيزيقية، والتي تمنى "كون" أن يضمنها في نظريته حول البراديغم[16].

وبالعودة إلى حقل العلاقات الدولية، فإنه يمكن الوقوف على الكثير من المواقف والمبادئ الأنطولوجية التي تشترك فيها مجموعة من النظريات تنتمي إلى براديغمات مختلفة مثال ذلك أن بعض البنائيين يقبلون بالنظرة الواقعية حول الدولة، وآخرون يشاركون الليبيراليين في مسألة التّعاون المؤسسي[17]. كما أن الواقعيون والليبراليون يقيمون أنطولوجيتهم حول نموذج "الخيار العقلاني" Rational choice. وباختصار، يمكن أن يكون البراديغم "الكوني" مساعدا في تتبع جوانب مهمة في النقاشات الأكاديمية الجارية في حقل العلاقات الدولية، ومع ذلك فأن تصوراته الصلبة تثير الكثير من المشاكل أثناء تتبع تاريخ العلم الاجتماعي بشكل عام وحقل العلاقات الدولية بشكل خاص.

يقدم "لاري لودان" وجهة نظر مختلفة عن التصور "الكوني" بحيث يرى أن التعايش بين النظريات المتنافسة هو القاعدة وليس الاستثناء، ذلك أن التطور الحالي للعلم أقرب إلى صورة التعايش الدائم بين النقاشات المفاهيمية المتنافسة منه إلى صورة العلم "العادي" normal science[18]. ويبدو هذا واضحا إذ من الصعب لو تم العودة إلى 300 سنه من تاريخ أي علم أن تسود صورة العلم العادي لفترة طويلة، لكن ما يلاحظ هو وجود عدة "تقاليد بحثية" Research Traditions متنافسة، ولذلك تكون المواجهة الجدليّة ضرورية لنمو وتطور المعرفة العلمية[19]. ويبدو أن هذا الطرح أكثر واقعية عندما يتعلق الأمر برسم خريطة الاتجاهات النظرية المتنوعة التي ظهرت في حقل العلاقات الدولية على مدى النصف الأخير من القرن الماضي[20].

ثانيا– البراغماتية كمنهجيه لتجاوز الحدود البراديغمية:

إن القبول بعواقب فشل النقاشات الابستيمولوجية، حسب ما يطرحه "فردريك كراتشوفيل" Friedrich Kratochwil و"يورغ فريدركس" Jörg Friedrichs لا يعني وضع حد لجميع البحوث النقدية ، أو الوقوع في حبائل "العدمية" nihilism، و"النسبوية" relativism، أو "الفوضى المنهجية" anything goes فإذا لم يكن هناك اتفاق حول أسس المعرفة العلمية بين البراديغمات، فان الاستراتيجية "البراغماتية" Pragmatism تقدم بديلا مهما في هذا السياق[21]. وهي وسيلة للمضي في البحث مع درجة ملائمة من الوعي الابستيمولوجي والمنهجي[22].،وهو سبب زيادة اهتمام المنظرين في الحقل بالبراغماتية حيث خصص محرّروا "مجلة الدّراسات الدولية:

الألفية" Millenium سنة 2002 عددا خاصا مكرسا للبراغماتية يهتم "بالنزعة التعدّدية" multi-perspectivisme كما احتضنت "مجلة العلاقات والتنمية الدولية" JIRD سنة 2007 ندوة حول البراغماتية، واتبعتها "مجلة الدراسات الدولية" ISA عام 2009[23].

وإذا كانت البراغماتية جديدة على حقل العلاقات الدولية، فهي تقليد قديم في الفلسفة. وعليه، فمن المهم الإشارة إلى الجيل الأول من البراغماتيين مثل "جون ديوي" John Dewey و"وليام جيمس" William James و"تشارلز ساندرس بيرس Charles Sanders Peirce، في حين يمثّل البراغماتية المعاصرة كل من: "رتشارد رورتي" Richard Rorty ، "هيلاري بوتنام" Hilary Putnam و"رتشارد بوسنر" Richard Posner[24].

وخلاصة القول إن البراغماتية تحاول الجمع بين التقاليد البحثية بطريقة خاصة، وذلك بهدف تناول مشكلات الواقع بطريقة تمكّن من إعادة صياغتها في خصوصيتها المعقدة من اجل تفسيرها وفهمها.[25] فعكس النزعة البراديغمية ترى البراغماتية أن تعدد النظريات أمر صحي وايجابي. لذلك يحاول البراغماتيون اعتماد التحليلات المقدمة من برامج بحثية مختلفة بغية فهم أفضل للظواهر الاجتماعية[26].

في هذا السياق، يرى "ديفيد غروندن" David Grondin بأن تعدد المنظورات "multiperspectivism" ينطوي على مقاومة "للنظريات المهيمنة"، وهو التغيير في المنظور الذي تدعو اليه البراغماتية في العلاقات الدولية. والتي يعرّفها "دان أوميرا" Dan O'Meara بأنها:

"الفلسفة التي تركز على التطبيق العملي للأفكار أكثر من تركيزها على المنطق والدقة التحليلية".

فالبراغماتية تفترض أن أفضل اختبار يمكن القيام به لقبول نظرية ما هو تقييم فائدتها العملية"[27] لذلك فإن البراغماتية والعقلانية تتعارضان بشأن معيار صحة المعرفة، فالمعيار بالنسبة للبراغماتية هو النفعية أو "الإستعمالية" Utility بينما بالنسبة للعقلانية هو التطابق و"الاتساق" Coherence. وعليه فالبراغماتية تريد إعادة الاعتبار للتفكير العملي في مجال البحث العلمي. لذلك تذهب لرفض التجريد المنفصل عن الواقع. وتميل إلى المعرفة العملية التي لها علاقة بالمشكلات الواقعية.

إن النتيجة المباشرة لتبني "الاستعمالية" كمعيار لصحة المعرفة هو استخدام عدّة نظريات، فالبراغماتية هي نزعة "لا براديغمية" تعتقد أن التعدّد النظري مفيد لتفسير الظواهر.ومن هذا الأساس تستمد البراغماتية قيمتها المنهجية وهذا ما عبّر عنه "أوميرا" O'Meara:

"أفضل نظرية هي التي تعمل على نحو أفضل، فإذا كان دمج ومزج النظريات، يقود إلى تحسين النتائج العملية، فهذا مبرّر كاف للعمل في هذا الاتجاه". يسعى التحليل البراغماتي للتحرك في"ما وراء الحدود" البراديغمية وذلك باستخدام تقاليد بحثية مختلفة مصممة بكفاءة ومكملة لبعضها البعض. فالبراغماتية وسيلة للتعامل مع نظريات العلاقات الدولية، وهي منهجيّة "مقادة بالمشكلات" problem-driven بدل أن تكون "مقادة بالنظرية" theory-driven كما يجري الحال في البحوث البراديغمية. وعليه فان البراغماتية لا تهتم باتّساق التحليل بقدر ما تهتم بفائدته

العملية. والعبارة التي يستخدمها العديد من البراغماتيين للتعبير عن هذا التفاعل هي أن "المعتقدات قواعد للعمل" beliefs are rules for action[28].

إن المنهجية البراغماتية لا تقف عند الأسئلة الابستيمولوجية وإنما تمضي إلى دراسة مشاكل محددة دون البحث عن أجوبة للأسئلة التأسيسية ، وذلك اقتناعا منها بأنها غامضة وملتبسة، وهي بذلك تتبنى حولها موقفا "غنوصيا" – لا أدريّا – agnosticism [29]. وتعود جاذبية البراغماتية في الحقل، حسب "قانثر هلمان" Gunther Hellmann لنزعتها اللاّمذهبية لأنها لا تقدم نفسها في مفاهيم صلبة كالبراديغم.[30] وبعبارة "رتشارد رورتي" إنها تتحدى فكرة الكابح القبلي والترانسندنتالي[31].

ويعتبر "كراتشوفيل" في السياق ذاته، إن البراغماتية ابتعدت عن "الوعود الزائفة" للتأسيسيين fondamentalist، لأنها تتجه لدراسة الظواهر دون الحاجة إلى اليقين بشأن الأسس الابستيمولوجية . وذلك بسبب فشل المشروع الابستيمولوجي للتأسيسيين، والذي لم يحدد معايير الصواب والخطأ. فهي بذلك نزعة "لا ماهوية" Anti-essentialism و"لا تأسيسية" Anti-foundationalism . وبالمثل، يتبنى "رودا سيل" Rudra Silموقفا ضد "الوثوقية الابستيمولوجية" absolutism epistemological أما "هيلمان" فيدعو إلى نوع من التوليف البراغماتي، والذي لا يسعى إلى تحقيق توافق في الآراء، بالقدر الذي يوفر سبل "خلاقة" لفهم المشاكل الواقعية.

فالبراغماتية تنطلق من فكرة مفادها أنه لا يمكن لنظرية واحدة تحليل الظواهر الدولية في تعقيدها لان "النظريات ترى سوى ما أمكنها رؤيته". Theories only see what they can see أي أنها تقتصر على الجانب من الظواهر الذي ينسجم مع أنطولوجيتها وعدّتها المفاهيمية وميكانيزماتها السببية . فالنظريات تركز على متغيرات دون أخرى من أجل أن تضمن الاتساق الداخلي. هذا هو السبب الذي يجعل التحليلات "الأحادية" عاجزة عن الإحاطة بالواقع. وغير قادرة على التعاطي مع التعقيد الذي يميزه[32].

تتبنى البراغماتية منهجا تعدييا ولذلك فهي ليست مدرسة جديدة أو اتجاها جديدا في العلاقات الدولية، بل طريقة جديدة، لا لوضع برنامج بحثي جديد، من شأنه أن يخلق حواجز وحدودا جديدة بين الباحثين. بدلا من ذلك، فنقطة انطلاق البراغماتية هي التعددية والانفتاح على المناهج المختلفة بدل التعصّب والانغلاق البراديغمي. وهي نفس الفكرة التي يراها "ديفيد اوين" David Owen الذي اعتبر أن المنهج البراغماتي هو مجرد "إعادة توجيه" لنظرية العلاقات الدولية وليس اقتراح نظرية جديدة[33].

ثالثا– من النقاش إلى الحوار التعددية ومساعي التوليف النظري في حقل العلاقات الدولية:

يبدو أن النظرة الأحادية بالنسبة للكثير من علماء العلاقات الدولية قد ولت، فالحقل اليوم يبدو أكثر تنوعا وانقساما مما لو كان يقبع تحت هيمنة اتجاه نظري أحادي[34]. وحسب "جيفري تشيكل" Jeffrey T. Checkel كان النقاش داخل الحقل طيلة القرن العشرين يدور حول من يهمين؟ وأي هاته النظريات أصلح من الأخرى؟ لكن ومع بداية التسعينات بدأت النظرة الأحادية في التراجع لصالح الموقف التّعددي.

يمكن استحضار الكثير من الشواهد، في هذا الصدد، ففي عام 1998 صرحت "مارغريت هيرمان" Margaret Hermann رئيسة "جمعية الدراسات الدولية" ISA في خطابها الافتتاحي إن هناك " حقل واحد، ومنظورات عديدة"[35]، وهي نفس الفكرة التي عبر عنها "ستيفن والت"Stephen M. Walt في مقاله الشهير "العلاقات الدولية: عالم واحد ونظريات متعددة". أما "ستيف سميث" في خطابه الافتتاحي أمام ISA عام 2003 أعلن أنه "في العالم الاجتماعي دائما هناك أكثر من قصّة يمكن روايتها". ويعتقد "سميث" أن انتشار النظريات ساعد في جعل الحقل أكثر صحة كما أن التّعدد النظري في الحقل أمر محمود 'more is better'[36].

يُرجع " تشيكل" Checkel انتشار النزعة التعددية إلى سببين، الأول خارج عن الحقل وهو الضرورة الملحة للفهم النظري "للتعقيد" complexité والثاني داخلي يرجع إلى الضجر lassitude من الحروب البارادغمية. إن هذه المساعي كان عليها أن تنتظر حتى انعقاد المؤتمر السنوي "لجمعية الدراسات الدولية" ISA سنة 2008 والذي حمل عنوان "تجاوز الانقسامات المتعددة" Bridging Multiple Divides.

ومما يعكس انتشار النظرة التعددية داخل الحقل سبر الآراء الذي أجراه مشروع "تدريس وأبحاث السياسة الدولية" TRIP عام 2009 والمتعلق بمواقف الباحثين من التفسيرات المقترحة من قبل الاتجاه العقلاني والاتجاه البنائي، فكانت النتائج كما يلي: 16 % من العلماء فقط يعتقدون أنه يجب اختبار كل من الاتجاهين الواحد في مقابل الآخر. 44 % يعتقدون أنهما مكملان لبعضهما البعض ويجب أن يظلا متمايزين ويشرحان جوانب مختلفة في العلاقات الدولية. 40 % يؤيدون التوليف بين النظريتين من أجل خلق نظرية أكثر اكتمالا. وهذا يعني أن 84 % من العلماء من بين 2724 عالم من 11 دولة شملتها الدراسة تعتبر أنه لا يجب الاهتمام بالتنافس بين العقلانية والبنائية بقدر الاهتمام بالتكامل فيما بينهما[37].

وفي نفس الاتجاه دافع "بيتر كتزنشتين Peter J. Katzenstein و"رودا سيل" Rudra Sil على إمكانية التوليف بين مجموعة من المقاربات النظرية في العلاقات الدولية بإتباع منطق "إنتقائي" eclectic تتداخل فيه الميكانيزمات السببية .أما "ميلخا كوركي" Milja Kurki فترى أن التحدي الذي يواجه العلاقات الدولية كحقل معرفي هو تطوير تحليلات حساسّة "للتعقيد"complexity وهو ما لا يكون –حسبها- إلا عبر تعددية ابستيمولوجية ومنهجية. ومنه فإن التّعدديين يذهبون إلى ما ذهب إليه "سميث" بأن الحقل اليوم أكثر صحية بفضل التنوع النظري فالتعددية هي "فضيلة" vertue وليس "عيبا". vice [38].

وفي دراسة له بعنوان "مساعي التوليف النظري في العلاقات الدولية : حقيقة وليست ميتافيزيقا" جادل "اندرو مرافتشيك" andrew moravcsik بأن المسعى نحو التوليف ليس أمرا مرغوبا فيه فحسب، بل هو مطلب ضروري لأي محاولة ترمي للفهم العميق للعلاقات الدولية باعتباره حقلا اجتماعيا [39].

ويعتقد "مورافتشيك" إن الحقل شهد الكثير من مساعي التوليف النظري في العقدين الماضيين، ويقدم في ذلك الكثير من الأبحاث التي يمكن تصنيفها كأعمال توليفية بداية "بروبرت كيوهين" Robert Keohane الذي جمع بين "نظرية الاستقرار بالهيمنة" hegemonic stability و"نظريات الأنظمة" regime theories لتفسير

التعاون ما بعد الحرب العالمية الثانية[40]. بالاضافة الى الجيل الأخير من المنظرين، بقيادة "ستيفن والت" Stephen Walt، "جاك سنايدر" Jack Snyder ، "ستيفن فان ايفيرا" Stephen Van Evera، و"باري بوزان" Barry Buzan وزملاؤه الذين جمعوا بين مفهومي "القوة"و"النوايا" لشرح تشكيل التحالفات والامبريالية ،والحرب، والبنية العالمية، يضاف إليهم كل من "بروس روسيت" Bruce Russett و"جون اونيل" John O'Nel اللذان ربطا العوامل الليبرالية والمؤسساتية لشرح السلام بين الدول الليبرالية. بالاضافة الى "كترين سكينك" Kathryn Sikkink و"مارثا فينيمور" Martha Finnemore اللتان جمعتا بين العقلانية والبنائية لشرح تطور المعايير الدولية لحقوق الإنسان[41].

يعتقد "مورافتشيك" أن زيادة تعقيد الأحداث والظواهر في عالم السياسة العالمية يحول دون تفسيرات "أحادية السبب" unicausal . فاندلاع الحربين العالميتين، وظهور القانون الدولي لحقوق الإنسان والمعايير الدولية، وتطور الاتحاد الأوروبي،...الخ، كلها أحداث هامة ومعقدة تكفي لتبرير الاتجاه نحو التوليف النظري والبحث عن تفسيرات متكاملة بدل الاستسلام "للإنكفاء النظري" theoretical parsimony الذي تفرضه النزعة البراديغمية.

في المقابل، يرى "يوسف ليبد" Yocef Lapid أن "الاتجاه للحوار" dialogical turn يمثل علاجا محتملا للكثير من المشاكل الابستيمولوجية في الحقل. فالدخول في مشروع حواري حسبه سيخدم التعددية النظرية ويعتبر مرحلة جديدة للتنظير لأنه سيمكّن من الاستفادة من فرص التواصل المثمر بين النظريات عبر تجاوز المشاكل الميتانظرية. وفي هذا السياق يتساءل "دونالد بوشاله" Donald Puchala : "إذا كان الحوار مستمرا ومتواصلا وبديلا عن النقاشات الكبرى، وأصبح اتجاها فكريا في حقل للعلاقات الدولية ألا يدعوا هذا للتفاؤل بشأن الانفتاح والتعددية؟"[42].

أما "فرديريك كراتوشفيل" فيرى أن أساس الحوار الناجح هو تغيير "الفكرة التنظيمية" regulative idea التي ميزت المشروع العلمي، والقائمة على ربط التقدم العلمي بمفهوم "الانكفاء على الذات" self-sustaining وعملية الاستبعاد المستمر للأخطاء. فحسب "كراتوشفيل" فان النزعة البراديغمية مبالغ فيها phantasmagorical كما أنها تؤدي إلى الانغلاق داخل السياجات الدوغمائية[43]. فالتعددية لا يمكن أن تكون نزعة فوضوية "كل شيء جائز" anything goes"، بل على العكس من ذلك هي نوع من التسامح والتعايش، وهي الوجه الآخر لعدم الجمود الفكري، إنها ليست مسألة اختيار بين الأبيض والأسود بل هي مسعى لملئ الفجوة بين هاته المسافة من التباعد، وهي انفتاح على أفق من الممكنات الجديدة، هي منهجية تحريرية تسعى للاستفادة من كل التراث النظري من أجل فهم أفضل للظواهر الدولية[44]. ويلخص "ستيف سميث" ميزات وإيجابيات الاتجاه التوليفي والحواري في الحقل في النقاط التالية:[45]

1- إن الحوار والتوليف dialogue and synthesis يشجّع على تطوّر الأفكار لتصبح أكثر دقة بدلا الستاتيكية التي يقود إليها غياب التواصل والقولبة البراديغمية "الكونية" [46] . Kuhnian

2- يساعد الحوار والتوليف على منع هيمنة تصور أحادي على الحقل. فالالتزام بالحوار يعني الانفتاح على وجهات النظر الأخرى وهنا تكمن أهمية الحوار بين المواقف المختلفة[47].

3- يقي الحوار والتوليف من الوقوع في الرضا، الذي قد ينجر عن الانضباط البراديغمي، وفي المقابل فالحوار يعني الاعتراف بأن كل نظرية لها أهمية محدودة وجزئية فقط، كما أن وجهات النظر الأخرى جديرة بالاهتمام أيضا[48].

4- وأخيرا، تعكس فكرة الحوار والتوليف مبدأ متأصلا في العلم، وهي أنه لا يمكن لأي مقاربة أو نظرية أن تهيمن بدون جدل. فالحوار هو الإجراء الضروري لتقييم النظريات؛ وهذا يعني أن الحوار متضمن منطقيا في مفهوم العلم[49].

خاتمة:

عادة ما يفترض البراديغم ويعطي أفضلية انطولوجية وسببية لأنواع معينة من الظواهر، والميكانيزمات والعمليات بينما يتجاهل ويهمّش أخرى. بيد أن البراغماتية تحاول أن تبيّن كيف يمكن لميكانيزمات متنوعة من براديغمات متنافسة التفاعل مع بعضها البعض. وتحاول أن تكشف كيف يمكن الجمع بينها ضمن شروط معينة للتأثير على المخرجات والنتائج التي تهم الباحثين والممارسين.[50]

فتجاوز الحروب البراديغمية لا يعني إهمال أو تجاهل الإسهام الذي يقدّمه إتباع البارادیغمات المختلفة، بل يعني اكتشاف العلاقات "الموضوعية" substantive والكشف عن قنوات الاتصال بين البراديغمات، والتطلع إلى توليد رؤية منفتحة وهذا يتطلب طريقة جديدة في التفكير بشان العلاقات بين المفاهيم والافتراضات والنظريات في التعاطي مع العالم الواقعي.

إن هذه المبررات تجعل البراغماتية تكتسي أهمية حيوية بحيث يمكن اعتبارها تكملة للأبحاث البراديغمية.إنها تستغني عن التبسيط وتسمح بإجراء تقييم أكثر شمولية عن طريق استثمار الميزات العملية والنسبية للنتائج المتوصل إليها ضمن مجموعة من البراديغمات. وبذلك فهي تمثل طريقة لتجنب مخاطر الاعتماد على منظور تحليلي أحادي، وعلى هذا الأساس تلح الضرورة على تجاوز الحروب البارادیغمية بغية فهم تعقيد الظواهر الدولية.

التهميش:

(1) Jérémie Cornut , "Le pragmatisme et l'analyse des phénomènes complexes dans la théorie des relations internationales": le cas des excuses dans la diplomatie américaine"(these de doctorat en science politique Université du Québec,2012), p.07 at http://www.archipel.uqam.ca/5014/1/D2325pdf . See (15.05.2016).

(2) Ibid, p 08.

(3) توماس كون، ترجمة: يمنى طريف الخولي، بنية الثورات العلمية، (الكويت: عالم المعرفية)، ص 402.

(4) المرجع نفسه، ص 193.

(5) جون واتكنز، "ضد العلم السوي" في ماهر عبد القاهر محمد علي، مقالات نقدية في تركيب الثورات العلمية (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعيـــة،2000)، ص ص80-81.

(6) المرجع نفسه، ص 82.

(7) المرجع نفسه، ص 86.

(8) Sylvain Pâquet."Paradigmes et pragmatisme en relations internationales",(Mémoire Maîtrise en science politique Universitédu Québec,2013), p.30 at http://www.archipel.uqam.ca/5466/1/M12872pdf . See (15.05.2016).

(9) Ipid, p30.

(10) ميشيل ديوا، ترجمة: سعود المولى، مدخل لعلم اجتماع العلوم ، (بيروت:المنظمة العربية للترجمة 2008)، ص.158

(11) المرجع نفسه ص158.

(12) Larry Laudan, Progress and its problems: Toward a theory of scientific growth,(Berkeley: University of California Press,1977), p 73.

(13) Ibid.,p,74.

(**14**) Ibid,p,75.

(15) Ipid.

(16) Ibid.

(17) Rudra Sil, and Peter J. Katzenstein,Beyond Paradigms Analytic Eclecticism in the Study of World Politics,(New York: Palgrave Macmillan. 2010), p.06 .

(18) Ipid, p07.

(19) Laudan, Larry. "A Problem Solving Approach to Scientific Progress." In Ian Hacking (ed), Scientific Revolutions.(Oxford : Oxford UP, 1981), p 153

(20) Rudra Sil, and Peter J. Katzenstei,op.citp, p 07.

(21) Jörg Friedrichs and Friedrich Kratochwil "On Acting and Knowing: How Pragmatism Can Advance International Relations Research and Methodology" International Organization 63 (04) 2009, p726.

(22) Ipid, p707.

(23) Ipid.

(24) Jérémie Cornut, " Contre le « paradigmatisme »: le pragmatisme problem-driven et la théorie des relations internationals" ,Dynamiques Internationales, .3 (02) 2010, p03.

(25) Ipid, p708.

(26) Jérémie Cornut,op ci, p03.

(27) Ipid, p05.

(28) Günther Hellmann," Beliefs as Rules for Action: Pragmatism as a Theory of Thought and Action ", International Studies Review 11(03) 2009, p639.

(29) Jérémie Cornut, op cit, p 07.

(30) Günther Hellmann, op cit, p 639.

(31) رتشارد رورتي ، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، الفلسفة ومرآة الطبيعة (بيروت : المنظمة العربية للترجمة، 2009)، ص58.

(32) Jérémie Cornut, ,op cit, p 07.

(33) Ipid,p 13.

(34) Günther Hellmann, op cit.,p. 638.

(35) Jérémie Cornut, "Le pragmatisme et l'analyse des phénomènes complexes dans la théorie des relations internationales: le cas des excuses dans la diplomatie américaine", op cit ,p 05.

(36) Brian Schmidt, "International Relations Theory: Hegemony or Pluralism?" Millennium - Journal of International Studies 36 (02) 2008, p296.

(37) كذلك فان الكثير من العلماء المشهورين على غرار (" ادلر "Adler، تشـــيكل "Checke"، "كـــووب"Coob، "كتزنشـــتين" Katzenstien، "هارفي"veyHar، "فيرون" aron، EFe."هاس" Has، "مورافتشيك" Moravcsik، "لبيد" Lapid، "كراتوشفيل" Kaaratochwil "فانـــدت" Wendt، "سميث" Smith ...الخ) يهتمون بشكل او بالاخر بالاسئلة التي تطرحها التعددية Pluralism.

(38) Jérémie Cornut, "Le pragmatisme et l'analyse des phénomènes complexes dans la théorie des relations internationales: le cas des excuses dans la diplomatie américaine", op cit,p 07.

(39) Andrew Moravcsik,"Theory Synthesis in International Relations: Real Not Metaphysical", International Studies Review 5 (1) 2003 p 131.

(40) Ipid.,p 132.

(41) Ipid.

(42) Ipid,p129.

(43) Kratochwil, Friedrich, "The Monologue of "Science" ", International Studies Review 5 (1) 2003 p125.

(44) Ipid,p126.

(45) Steve Smith, "Dialogue and the Reinforcement of Orthodoxy in International Relations" International Studies Review (5((1) 2003, p 141.

(46) Ipid.

(47) Ipid.

(48) Ipid.

(49) Ipid.

(50) Rudra Sil,and Peter J. Katzenstein, op ci.,p10.